قالت العرب

"لا أحنُّ إلى أي شيء
فلا أمس يمضي ولا الغد يأتي
ولا حاضري يتقدّم / لا شيء يحدث لي!
ليتني حجر"

محمود درويش (1941 – 2008)

المشهد

العدد 341 – السنة الرابعة عشرة - الثلاثاء 12 أغسطس 2025 م الموافق 18 صفر 1447 هـ

خمسون عامًا على التأميم.. دعوة لإحياء الوعى وتكريم إنسان القناة

اسامة ربيع

متحف قناة السويس

قناة السويس

فى السادس والعشرين من يوليو من كل عام تحل ذكرى تأميم قناة السويس، لكنها العام القادم ستكون مختلفة؛ لأننا سنقف أمام اليوبيل الذهبى لقرار التأميم، مرور خمسين عامًا على ذلك اليوم الذى أعلن فيه جمال عبد الناصر إرادة المصريين للعالم كله. القناة ليست مجرد إنجاز تاريخى نحتفى به فى كتب التاريخ، لكنها إنجاز حي، شريان مائى نابض يمر فيه جزء كبير من تجارة العالم، يثبت كل يوم أن فى مصر رجالا قادرين على الإدارة وتحقيق الإنجازات.

الاحتفال باليوبيل الذهبى فرصة لإحياء الوعى بقيمة هذا الشريان المائى وأهمية القرار الذى يعد نموذجًا فى صناعة القرار السياسي. هو أيضًا دعوة لإحياء روح الانتماء لدى أجيال لم تسمع عن تضحيات العمال والشهداء الذين ارتقت أرواحهم بفعل الأوبئة أو الجوع أو العطش وضربات الشمس، وربما لم يقرأوا يومًا كتابًا أو حتى فقرة فى منهج دراسى عن قناة السويس.

من الآن، يجب أن نبدأ الإعداد للاحتفالية، وأن نفكر فى عمل فنى مسلسل، فيلم أو مسرحية يحكى تاريخ القناة ويظهر حجم التضحيات. لقد تعرضت بعض الأعمال الفنية من قبل لتاريخ القناة، عام ١٩٧٨ أخرج على بدرخان فيلم "شفيقة ومتولى" تأليف صلاح جاهين وبطولة أحمد زكى وسعاد حسنى، وتناول الفيلم السخرة فى الحفر من خلال قصة متولى وشقيقته شفيقة. وهناك فيلم "ناصر ٥٦" الذى تناول قرار التأميم كأحد أعظم القرارات وأكثرها تأثيرًا، وفيلم "بورسعيد" الذى عرض بطولة شعب المدينة فى مواجهة العدوان الثلاثي، وفيلم "الباب المفتوح" عن قصة لطيفة الزيات، الذى تناول تاريخ مصر قبل ثورة يوليو وحتى العدوان الثلاثي. كما قدم الكاتب محفوظ عبد الرحمن مسلسل بوابة "الحلواني" الذى تناول معاناة المصريين فى الحفر خلال حكم الخديوى إسماعيل. وللاقتراب أكثر من الناس والأطفال، شارك الأراجواز فى المعركة بعمل فنى للفنان الراحل محمود شكوكو، وسجلت الإذاعة المصرية مسلسلًا من ٦٠ حلقة بعنوان "عمار يا مصر" عن قصة القناة ومراحلها التاريخية، بالإضافة إلى عدد من الأفلام الوثائقية، منها قناة السويس بمناسبة مرور ١٣٠ عامًا على افتتاحها.

لكننا نتوقف ونسأل لماذا لا تُعرض هذه الأعمال الآن لإحياء الوعى وترسيخ الانتماء؟ الاحتفال باليوبيل الذهبى بعد ١٠ أشهر يتطلب العمل من الجميع. نريد بحثًا يسأل تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات عن معرفتهم بالقناة وقرار التأميم، بالتزامن مع دراسة تحليل مضمون للمناهج لمعرفة ما تقدمه عن القناة تاريخًا وواقعًا وأهمية جغرافية واقتصادية.

منذ أيام، كنت فى زيارة لمحافظة الإسماعيلية ضمن وفد من جمعية كتاب البيئة وجمعية بيئة بلا حدود، وزرنا متحف قناة السويس بدعوة كريمة من الفريق أسامة ربيع، رئيس هيئة قناة السويس. اصطحبنا المرشد فى جولة شرح خلالها محتويات المتحف الذى افتُتح تجريبيًا فى ٢٠ مارس الماضي، فى ذكرى العاشر من رمضان. القاعات الاثنتا عشرة، التى تضم ألفى قطعة أثرية، كانت مبهرة للأطفال والشباب. الجداريات، والأفلام، والسرد المكتوب والمرئى لتاريخ القناة، أكدت مصرية فكرة القناة وأهمية موقعها وتضحيات المصريين الذين حفروا بأدوات بدائية فى ظروف قاسية. فى المتحف قاعة خاصة بقرار التأميم تضم وثائق ومقتنيات للرئيس عبد الناصر، وعروض تمثيلية للأحداث المهمة فى تاريخ القناة. يستحق المتحف أن يكون قبلة لرحلات المدارس والجامعات ليروا القناة ويتعرفوا على تاريخها.

قناة السويس واقع يقول إن فى مصر رجالًا قادرين على إدارة القناة وتحقيق الإنجازات. فى أغسطس ٢٠١٥ تم افتتاح قناة السويس الجديدة لزيادة القدرة الاستيعابية وتسهيل الملاحة، وفى مارس ٢٠٢١ واجهت القناة حادث جنوح السفينة إيفر جرين القادمة من الصين والمتجهة إلى هولندا، التى عطلت حركة الملاحة. لكن رجال القناة استطاعوا تعويمها بعد ستة أيام فقط، فى أزمة كان يتابعها العالم كله.

إنسان قناة السويس، الذى حفر وأمّم ونجح فى إدارتها وحفر قناة جديدة أو توسعة جديدة، يستحق أن تُكتب له قصيدة نتغنى بها، مثل قصيدة "إنسان السد العالي" التى جسد فيها عبد الرحمن الأبنودى معاناة العمال فى بناء السد وغربتهم وشوقهم للأهل وتحولات المجتمع المصرى فى الستينيات.

التأميم.. نموذج القرار السياسي في الوطن العربي

احتل قرار تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، الذى أعلنه الرئيس جمال عبد الناصر، مكانة بارزة فى دراسات العلوم السياسية، وكان موضوعًا لرسائل ماجستير ودكتوراه وأبحاث متعددة. من أبرز هذه الأعمال ما ورد فى كتاب "كيف يصنع القرار فى الوطن العربي"، الصادر عام ١٩٨٥ عن مركز دراسات الوحدة العربية ضمن سلسلة "مكتبة المستقبلات العربية البديلة"، والذى تضمن أبحاث ومناقشات ندوة عُقدت فى القاهرة.

فى القسم الثانى من الكتاب، قدّم الدكتور محمد السيد سليم، أستاذ العلوم السياسية، دراسة بعنوان "قرار تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦: دراسة فى اتخاذ القرار القطري". فى مقدمة دراسته، أكد أن قرار التأميم يعد أحد أهم خمسة قرارات أثرت فى مسار التطور السياسى للوطن العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين، إذ استعاد لمصر سيادتها على القناة بعد أن فقدتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ومنحها السيطرة على جميع أرباحها بعد أن كانت حصتها لا تتجاوز ٧٪، كما غيّر من أنماط التفاعلات السياسية فى المنطقة.

حلل سليم القرار من جوانب متعددة: هيكل عملية اتخاذ القرار، دور عبد الناصر القيادي، نظام الاتصال داخل جهاز اتخاذ القرار، والسياق التاريخى الذى سبق التأميم. كما تناول مطالبات الحكومات المصرية السابقة بزيادة دور مصر فى إدارة القناة، والمفاوضات مع شركة قناة السويس، ومحاولات الشركة تمديد فترة الامتياز، وصولًا إلى تأثير ثورة يوليو ١٩٥٢ فى إعادة صياغة العلاقة مع الشركة.

أفردت الدراسة مساحة للسياق المباشر الذى مهّد للتأميم، والمتمثل فى سحب الولايات المتحدة وبريطانيا عرض تمويل مشروع السد العالي. وأوضح المؤلف أن عملية اتخاذ القرار تضمنت جمع معلومات عن المخاطر المتوقعة، مثل الغزو العسكري، وتجميد الأرصدة المصرية فى الخارج، وانسحاب المرشدين الأجانب. كما جرت دراسة بدائل التأميم قبل اتخاذ القرار النهائي.

جاء التنفيذ بسرية تامة، وأسند عبد الناصر مهمة إدارة عملية التأميم إلى المهندس محمود يونس، نظرًا لخبرته بالأعمال الهندسية لشركة القناة من خلال عمله فى مكتب القناة بمجلس الوزراء.

بهذا القرار، فتحت مصر صفحة جديدة من سيادتها الوطنية، وأرسلت رسالة قوية إلى العالم بأن القرارات الكبرى يمكن أن تُتخذ بإرادة سياسية واعية، مدعومة بحسابات دقيقة للسياق المحلى والدولي.

السخرة فى حفر قناة السويس.. وثائق تكشف مأساة ١٧٦ ألف عامل مصري

فى عام ٢٠٠٢ أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن سلسلة "تاريخ المصريين"، كتاب "السخرة فى حفر قناة السويس" للمؤرخ الراحل الدكتور عبد العزيز الشناوي، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة القاهرة. الكتاب فى أصله رسالة ماجستير نوقشت عام ١٩٤٨ بكلية الآداب تحت إشراف المؤرخ الكبير الدكتور شفيق غبريال، وتعد أهم عمل علمى تناول قضية السخرة فى حفر القناة، مستندًا إلى الوثائق والمضابط والمراسلات الرسمية.

يستعرض المؤلف، بالأرقام والشهادات، كيف دفعت مصر النصيب الأكبر من تكلفة تنفيذ المشروع من أرواح ودماء أبنائها، إذ كان يتم حشد ٢٠ ألف عامل شهريًا يُساقون إلى ساحات الحفر موثقين بالحبال، تاركين حقولهم ومصادر رزقهم. هذا الاستنزاف البشرى أدى إلى تدهور الزراعة وتراجع إنتاج القطن وأثر سلبًا على الوضع الاقتصادي.

يبدأ الكتاب بالوثيقة الأولى: عقد الامتياز لحفر قناة السويس فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤، الذى حصل عليه فرديناند دليسبس من صديقه محمد سعيد باشا. الامتياز، المعروف بـ"الفرمان الأول"، منح الشركة الفرنسية صلاحيات واسعة، منها إنشاء وإدارة القناة لمدة ٩٩ عامًا من تاريخ افتتاحها للملاحة، والإعفاء الجمركى الكامل على المعدات، وحق استخراج المواد من المناجم والمحاجر مجانًا، فضلًا عن منح مساحات شاسعة فى منطقة القناة.

رصد المؤلف إصرار دليسبس على استمرار العمل بالسخرة حتى فى شهر رمضان، وبوتيرة متواصلة ليلًا نهارًا. ووفقًا للائحة التشغيل، كان أجر العامل يتراوح بين قرشين ونصف وثلاثة قروش يوميًا، وهو متوسط أجر الوقت، لكن دون مراعاة معاناة السفر الطويل إلى مواقع الحفر، وندرة مياه الشرب والطعام، وغياب سكن آمن للإقامة. وكانت الشركة تحتجز أجر أسبوعين من العمال خوفًا من هروبهم.

رغم ضآلة الأجور، تلاعبت الشركة فى صرفها، فيما كان العمال عرضة للإصابة بأوبئة التيفود، التيفوس، الجدرى والكوليرا، التى حصدت أرواح الآلاف. وتشير الإحصاءات التى أوردها الشناوى إلى أن ١٧٦ ألفًا و٧٨٠ عاملًا شاركوا فى حفر القناة، لإزالة المرتفعات وحفر المجرى البحرى فى ظروف قاسية تكشف بوضوح توفر الإكراه فى العمل.

يخلص المؤلف إلى أن مشروع قناة السويس لم يكن فقط إنجازًا هندسيًا يربط البحرين الأحمر والمتوسط، بل كان أيضًا صفحة مأساوية فى تاريخ العمل القسرى فى مصر. ويوثق الكتاب، من خلال أرشيف نادر، حجم الاستغلال الذى مارسته الشركة الفرنسية بدعم من الامتيازات السياسية، على حساب حياة وكرامة العمال المصريين.

تقارير: نجوى طنطاوى

المساجدُ بين أرسطو وبريخت

لماذا لا يتقبّل اللّه دعاءَ المسلمين؟

تعوّدنا، منذ قرون على أن نرفع أيدينا ونلهج بالدعاء إلى الله تعالى، لكي يهزم أعداءنا ويمزّق شملهم، ويفكّ أسّرانا ومُسّرانا، وأن يفتح علينا أبواب رزقه، ويزوّج الأعزب ويشفي المريض، ويرحم الموتى، ويكفينا شرّ الأشرار، ويولّي علينا خيارَنا، ويحفظ بلادنا، وأن يهدينا سواء السبيل والصراط المستقيم. والنتيجة أن الله تعالى لم يستجب للأكفّ المرفوعة وللألسن المُلحفة وللدموع الراجية، منذ عقود. وهذا طبيعي، لأن المولى، عزّ وجلّ، لن يقومَ مقام الناس ويغيّر أحوالهم، وهم جالسون، كسالى، يتّكلون على غيرهم ليبدّل حالهم، ولا يفعلون سوى الكلام. فالله سبحانه وتعالى، لن يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، ومثلما تكونوا يولّىَ عليكم. فإن كانوا منافقين، عاجزين، وجبناء يخافون القيام بما يجب أن يقوموا به، فلماذا يرضى اللهُ عنهم ويحقّق دعاءهم؟ وكيف يقوم بدلا عنهم بفعل ذلك، وهو القادر على كل شيء؟! إن ذلك سيبقيهم عبيداً مُستلبين ضعفاء، خائفين من الذي يستلبهم ويقمعهم ويصادر حقوقهم. وواجبهم؛ أن يستنفروا قواهم ويعلوا أصواتهم ويجابهوا الظالم، بأجسادهم وإرادتهم، مهما كلّفهم ذلك. أليس قول كلمة حقّ أمام سلطان جائر هي أعلى مراتب الشهادة؟ ألم يقل الرسول، عليه وعلى آله الصلاة والسلام: مَن رأى منكم مُنكرا فليغيّره بيده، إلى آخر الحديث الشريف.. فلماذا نسي المسلمون التغيير بأيديهم، واستمرأوا التغيير بالدعاء المكرور الذليل الذي لا يعوّل عليه؟

إن الله تعالى لن يتقبّل دعاء الجموع والمصلّين، لكنّه يقبل دعاء الأفراد المظلومين غير القادرين والمغلوب على أمرهم، الضحايا المعذورين، الذين لا يمتلكون وسيلةً للتغيير. أما آلاف وعشرات الآلاف والملايين من الداعين في المساجد، فعليهم أن يخرجوا إلى الشوارع ويطالبوا الحاكم بردّ المظالم وإحقاق العدالة ونصرة المظلوم، وعندها سيعينهم الله تعالى. أما أن يطلبوا من الله فقط، فإن ذلك يريح الحاكم الذي يتفرّج، بسعادة، على أولئك الذين أعفوه من حقوقهم، والتجأوا إلى مَن لم يظلمهم. والحاكم يريد لهذه الآلاف أن تبقى داخل جدران المَساجد؛ تدعو وتبتهل وتبكي. ولسان حاله يقول للمسلمين: "إذا أردتم شيئا فاطلبوه من ربّكم، وليس منّي"! وهذا ما يكرّس الظلم ويعفي الظالم. فلو خرج الآلاف إلى الساحات والمفارق ورفعوا مطالبهم، كما يرفعونها لله، لتزلزل كرسيّ الحاكم، ولخاف على حُكمه، وفَعَل الصوابَ، اتقاءً للتمرّد والسؤال الثقيل.

والحاكمُ عبر التاريخ ميتهجٌ بهذه المعادلة، التي وفّرت للناس متنفّسا لغضبهم، عند كل صلاة جامعة! فيخرجون وقد طلبوا ما يريدون من خَالقهم، وكلّهم وَهْمٌ بأنهم قاموا بما عليهم القيام به! وهذا عين الخطيئة وقلب الخدعة، لأن كل واحد عليه أن يستردّ حقوقه ممَن أخذها منه، قهرا وغصْبا. ولن يرضى الله لأن يبقى المظلومُ عاجزا مُهانا ذليلا، يرجو من غير الظالم، لأن يعيد له حقوقه.

إن الحاكم يعرف جيداً خطورة ذلك، فيسارع إلى الطلبَ من شيوخ السلاطين لأن يزيدوا في الدعاء والنحيب والرجاء وسحّ الدموع والتضرّع للخالق القدير، لأن في ذلك تحقيقا لنظرية أرسطو الملعونة!

فأرسطو الحاذق؛ يؤمن أنه عبر الشفقة والخوف يتطهّر الإنسان (المُشاهد أو الدّاعي)، لأن هدف أرسطو هو التصالح مع الواقع بأحسن صوره، وبالتالي يدرك الجوهر على أساس أنه محاكاة. وأقصد: أن أرسطو هدفه التصالح، لأنه من خلال رؤية المسرحية، أو المشاركة بالدّعاء والتضرّع للسماء، يفرّغ ما بداخله من نقمة على الواقع ويخرج من المَشاهد أو الصلاة(نظيفاً) ليس في خلجه أي بذور نقمة أو غضب على الواقع. وهذا برأيي، تصالح لا يدفع المُشاهد أو الدّاعي لأن يغيّر واقعه نحو الأحسن، لأن التراكمات التي ترسّخت في داخله زالت وذابت بفعل رؤية مسرحية رفْع الأكفّ لله تعالى، ذات النهاية السعيدة والمريحة! أي أن المسرحية (الدعاء) قامت بواسطة (التطهير) بعملية غسل لهذه التراكمات.. وهكذا تفعل الدعوات والدموع والتضرّع المنكسر. بمعنى أن الأدعية هي المعادل الموضوعي للمسرح الأرسطي، والقائم على أنّ وظيفته تتغيّا التكيّفية، وليس هناك من أساس لتثوير الواقع أو الاحتجاج ضده.

وإذا عقدنا مقارنة بين مسرح أرسطو طاليس وبين مسرح بروتولد بريخت، فإن موقف بريخت أكثر ثورية (إنسانية). فبريخت عاش في مجتمع رأسمالي، وأرسطو عاش في مجتمع الرقّ والعبودية، أي أنهما عاشا في مجتمع يعتريه التمايز الاجتماعي، ولكن بريخت رفض واقعه، وبالتالي عمل في مسرحياته أول ما عمل، إنه أخرج نظرية التغريب، التي تتضمن: منع حصول التطهير عند المشاهد، لأن التطهير في النهاية يعني إعطاء قدرة على التكيّف مع الواقع بأسمى شكل، وبالتالي يدخل في المحاكاة، وبدل ذلك يدعو إلى حقن المشاهد بالطاقة بدل تفريغها. وبريخت يريد من المشاهد أن يفكّر بالحدث من الخارج وليس أن يتمثّل الحدث، لكي يدفع المشاهد للتغيير ويشحنه تراكمياً، وهذا بالضبط يناقض "تطهير" أرسطو. فمسرح أرسطو عاطفي ومسرح بريخت فكري. بلغة أخرى؛ أرسطو يجعل المشاهد يتمثّل الحدث وبالتالي يتصالح مع الواقع ولا يعمل لتغييره. أما بريخت فإنه يجعل المشاهد يرى الحدث من الخارج، لا أن يتمثّله ويتصالح مع الواقع، بل يدفعه لتغييره. فمسرح أرسطو يؤدي إلى خلود الواقع، ومسرح بريخت يؤدي إلى تغييره (التجاوز)، وبالتأكيد فإن موقف بريخت أكثر شمولية ووعياً من موقف أرسطو. بمعنى أننا عندما نشاهد "مسرحية" تتفاعل فيها الأحداث ثم تنتهي نهاية سعيدة، فإن المتفرّج يخرج راضياً، بعد أن تمّ حلّ المشكلات على المنصّة، درامياً، وكذلك يخرج المصلّي الذي دعا ربّه، فيخرج من المسجد مرتاحا! أما بريخت فيريد للمسرح أن يُعبّئ المتفرّج ويحقنه بالوعي والسخط والنقمة، ومن الجامع أن يشحن المصلّين بالوعي وبما يجب أن يفعلوه، دون تقديم حلّ جاهز نظريّ مريح، بقدر ما يطلب منهم أن يخرجوا إلى الشارع ويغيّروا هذا الواقع الظالم، بأيديهم. ما يعني أن على خطيب المسجد أن يضيء للمصلّي جوانب الحياة ويشير إلى مواطن الخلل والإجحاف، ويطلب من المُصلّين لأن يثوروا على ذلك، لا أن "يُنفّسهم" بالدعاء، وبأن الدعاء هو طمأنة لهم، لأنه رجاءٌ لله ووعدٌ منه، لكي يُبدّل الحال السيء إلى حال أفضل.

يعني؛ علينا أن نفهم بأن أداة التغيير هي الفعل، وليس الكلام. وإن كان دعاءً للمولى، عزّ وجل.

والدعاء وسيلة المؤمن للتضرع إلى الله تعالى، بعد أن يستنفذ العمل المطلوب، ويقوم بكلّ الأسباب، والإجابة على الأسئلة، عملياً وفعلاً، والإيمان بأنه وحده مالك الملك شرط للاستجابة، باعتباره الصمد القادر على الإسناد والتوفيق.

ويتمّ من خلال الدعاء إظهار الاعتماد الكامل عليه، سبحانه، في جميع الأمور، بعد أن لا تبقى ذريعة إلا وقمنا بسدّ ثغرتها.

وعلى الداعي أن يكون متصالحا مع الله نظيفا من الخطايا، ما وسعه ذلك، أو يرجو المغفرة بعد التوبة النصوحة ليتطهّر من الذنوب، ويعلم أنه سبحانه هو القادر على كل شيء، وأنه هو الغنيّ الحميد، وأنه الحكيم العليم، الذي دعانا للعمل:"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون". وأمَرَ لأن يكون الدعاء عملا، وليس كلاما وإجهاشا باللغة وترداداً دون فعل حقيقي ملموس.

الدعاء هو أن نبدّل الواقع بأيدينا، وليس بكلمات باكية عاجزة. فالله تعالى، لم يُجامل، حتى الأنبياء، حين فَرَضَ سُنَنَه، فقال"اعملوا، وأعدّوا"، ثم اطلبوا النصرة منه. ألم نقرأ ما قاله الله تعالى للمسلمين بعد معركتيّ "أُحُد وحُنَيْن"، بعد مخالفتهم لأوامره! وكيف نصرهم في "بَدْر"لأنهم أعدّوا واستعدّوا. أما أن لا تعدّوا ولا تعملوا.. وتطلبوا منه النصرة، فإنه، قطعا، لن يستجيب لكم. وإن شئتم فابقوا في جحيم الذلّ والهوان والاستلاب، لأنه من فعل أيديكم ومن خوفكم، أيها المسلمون، فغيّروه، أو اخرسوا.

تخيّلوا؛ لو خرج كلّ المصلّين من المساجد، إلى الشوارع، يهتفون ويُطالبون.. فهل سيبقى الحال على ما هو عليه، أم سيبدّلون الواقع ويغيّرون الحال؟

أجيبوا أيها الدّعاة! يا شيوخ السلاطين!

بقلم: المتوكل طه